دراسات في الرحلة الحجية المغربية (3):
بواعث الرحلة الحجية المغربية وأنواعها

د. عبد الله بوغوتة
أستاذ باحث في التاريخ والتربية والتكوين
المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين بجهة الشرق
المغرب
ORCID : 0009-0002-1586-2343

ترجع أسباب اهتمام المغاربة بالرحلة، وخاصة إلى الديار المقدسة، إلى أن الإسلام يجعل من الحج ركنا من أركانه. فالمسلم وهو يفكر في ماهية إسلامه، تنتصب في وجدانه ومخيلته مكة المكرمة والكعبة الشريفة، وما يحيط بها من البقاع المقدسة، وكذا مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأولى القبلتين بالقدس الشريف؛ فيكون الهدف الأسمى لكل مسلم هو تحقيق الأمل وبلوغ المراد، بزيارة تلك البقاع، حتى إنك تجدهم إلى يومنا هذا، في المناسبات والأعياد، يتبادلون الدعاء بأن يرزقهم الله حجة وزيارة...

وإذا قمنا بمقارنة بين عدد الذين دونوا رحلاتهم على مستوى العالم الإسلامي، فإننا سنجد، وبدون مبالغة، أن المغاربة كانوا أكثر حظا من إخوانهم في هذا المجال. ولعل مرد ذلك تلك المسافة البعيدة التي تفصل المغاربة بالمشرق، وارتباطهم أكثر من غيرهم به. وعلى مقدار بعد الدار يكثر الحنين إلى الديار وساكنيها؛ كما هو الأمر عند المحبين والعاشقين.

أولا: بواعث الرحلة الحجية المغربية

وإن مما دفع العديد ممن رحلوا إلى تدوين رحلاتهم ومشاهداتهم، أنهم رأوا أنه من الواجب عليهم، وقد يسر الله أمرهم؛ فحققوا أملهم، أن يطلعوا إخوانهم، الذين لم يستطيعوا إلى ذلك سبيلا، على أهم المشاهدات والمشاعر والأحاسيس. وسنجمل فيما يأتي أهم الدوافع التي استحثت همم أهل الغرب الإسلامي على جوب الأرض، والاستهانة بالمصاعب لبلوغ المنية وتحقيق المراد بزيارة الأماكن المقدسة.

1- الدافع الديني

يعتبر هذا الدافع من أهم ما حرك أهل الغرب الإسلامي للتوجه إلى المشرق، وخاصة إلى بلاد الحجاز؛ وذلك راجع بالأساس إلى أن الدين أصبح عند المغاربة هو القاسم المشترك الذي يجمع الآراء والجهود، وهو الأمر الذي لا اختلاف حوله. فمنذ دخول الإسلام إلى مختلف بقاع الغرب الإسلامي، واستقرار الأوضاع بهذه الربوع، واطمئنان الناس، خصوصا بعد فتح الأندلس، نهض القادرون منهم على الرحلة؛ فمضوا إلى الحجاز زرافات ووحدانا لأداء مناسك الحج وزيارة الأماكن المقدسة.

ويمثل هذا النسك جوهر البواعث والأهداف الدينية التي دفعت المغاربة وغيرهم إلى الارتحال نحو أرض الحجاز، المرة تلو الأخرى؛ كأداء مناسك العمرة، والمجاورة وزيارة المسجد النبوي.

ولقد اهتم أهل التصوف بالرحلة الحجية. وفي كتاب «أنس الفقير» الكثير من أخبار العلماء الزهاد المتفانين في العبادة، ومنهم من العلماء المشتغلين بالعلوم الطبيعية والتجريبية والعقلية[1].

ومن المظاهر الدينية التي ارتبطت بالرحلة الحجية، نسخ المصحف وإرساله إلى الأماكن المقدسة، سواء إلى مكة المكرمة أم المدينة المنورة أو القدس الشريف. ومن الملوك المغاربة الذين اشتهروا بهذا الأمر نجد أبا يوسف يعقوب المريني، الذي حرص على أن يباشر عملية نسخ المصحف الشريف بيده، والإشراف على تذهيبه قبل إرساله إلى المساجد الموقوفة عليها بالمشرق[2].

ومن المظاهر الدينية الأخرى الاحتفال بالمولد النبوي الذي شاع بالمغرب مع حلول القرن السابع الهجري[3]. حيث أصبحت له مكانة خاصة عند المغاربة من بين الأعياد الدينية الأخرى، وكانوا يجتهدون في تخليد هذه المناسبة بالأشعار والأمداح، وقراءة القرآن، وإطعام الطعام، والتوسعة على العيال... مما يشحذ هممهم، ويزيد من شوقهم لزيارة البقاع المقدسة. وهذا يبدو بشكل واضح من خلال استقراء عدد من الرحلات التي تزخر بالأشعار التي تبرز الشوق والحنين لزيارة المسجد النبوي والحرم الأمين.

---

[1] - **أنس الفقير وعز الحقير**، ص:66-67.

[2] - **المسند الصحيح الحسن**، ابن مرزوق، ص323.

[3] - **وفيات الأعيان**، ابن خلكان، ص481.

ولئن كان الدافع الديني هو الأقوى غالبا، في شحذ عزائم أولئك المرتحلين، واستنهاض هممهم[1]، إلا أنه من الصعوبة بمكان أن نحدد بشكل دقيق الرحلات ذات الهدف الديني فقط، بل إن جل الرحلات، وإن لم تكن كلها، مزجت - في غاياتها وبواعثها وأهدافها - بين العبادة، وطلب العلم أو طلب الرزق.

2- الدافع العلمي

تعود نشأة الرحلة في طلب العلم إلى بداية توسع رقعة البلاد الإسلامية، وهذا ما أشار إليه عدد من أهل العلم. فهذا ابن خلدون، في مقدمته يرى أن الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة تزيد في اكتمال التعليم، فعلى قدر كثرة الشيوخ وتعددهم يكون حصول ملكات التعلم ورسوخها في ذهن طالب العلم[2].

ولم تقف الخلافات السياسية بين أجزاء العالم الإسلامية، في فترات معينة، في وجه الرحالين الطالبين الاستزادة من العلم. ولقد عملت الرحلات العلمية على توثيق العلاقات البينية وترسيخها؛ حيث كان الرحالون يقومون مقام السفراء، فيمثلون بلدانهم، سواء حملوا رسائل رسمية أم لا؛ مما أسهم، بشكل كبير، في تطور الحركة العلمية في المغرب والمشرق الإسلاميين.

ولقد تركت رحلات علماء الغرب الإسلامي أثرا بالغا في نفوس المشرقيين. فبتأثير الرحلة والمجاورة والحلقات العلمية، انتقل المذهب المالكي إلى الإسكندرية وساد فيها، لهذا نرى أن عددا كبيرا من علماء الإسكندرية كانوا مالكيي المذهب.[3]

ونظرا لتقدم المغرب الإسلامي حضاريا وفكريا، نجد أن معظم الرحالة لم يرحلوا إلى المشرق إلا بعد اكتمال تكوينهم العلمي، وإلمامهم بعلوم مختلفة. فابن رشيد السبتي مثلا نال التقدير في تونس، ورفعه ابن النحاس في مصر[4]. ونال التجيبي الاحترام نفسه في مصر، وتسابق الناس إلى

---

[1] - **العلاقات الثقافية بين الأندلس والبلاد العربية**، محسن جمال الدين، مجلة المناهل، الرباط، عدد 31، 1405هـ/1984م، ص152.

[2] - **المقدمة** لابن خلدون، ص541.

[3] - المجلة المصرية، مقال لمحمد طه الحاجري، عدد 87، ص10.

[4] - **ملء العيبة**، لابن رشيد، 108/3.

الاستفادة منه، وفي مقدمتهم ابن دقيق العيد[1]. أما العبدري فكان يحترم لعلمه أينما حل وارتحل، فلقد اتخذه شيخا كل من ابن دقيق العيد وتاج الدين القرافي وغيرهما[2].

وقد أسندت لبعضهم أعلى المناصب في القضاء والتدريس، وذاع صيتهم في المشرق؛ مثل أحمد بن عبد الرحمن الفاسي(ت741هـ/1340م) الذي رحل إلى المدينة، وولي نيابة القضاء بها، وكان صدرا في العلماء[3]. ويحيى بن موسى الرهوني (ت774هـ/1372م) الذي تولى التدريس بالمدرسة المنصورية بالقاهرة[4]، وجمال الدين بن موسى المراكشي (ت823هـ/1420م) الذي رحل إلى مصر والشام واليمن حيث ولي مدرسة الناصر وأقام بها[5].

وواظب عدد منهم على حضور مجالس العلم بالمراكز العلمية. فابن جبير كان يواظب عليه ببغداد[6]، وابن بطوطة انشغل في دمشق بمجالس العلم والوعظ، وحرص على تتبع ما بها من مدارس علمية لكل من الحنفية والمالكية والشافعية[7].

ومن بين الدوافع العلمية، الحرص على اقتناء المؤلفات والمصنفات العلمية؛ مثل ابن رشيد الذي عزم على الذهاب إلى الإسكندرية للحصول على مؤلفات عديدة وكتب قيمة. وفي هذا يقول: «ولم يكن توجهي للإسكندرية عازما على التغريب، ولكن لأخذ كتب كنت أودعتها هناك، ونيتي العودة إلى مصر برسم القراءة»[8].

أما العبدري فقد أهداه أبو زيد عبد الرحمن الدباغ بالقيروان أكثر من عشرة أجزاء من الكتب والفوائد والفهارس[9].

ولم تقتصر الرحلة على جلب الكتب والمؤلفات الفريدة، بل سعت كذلك إلى للحصول على النوادر والأخبار المتفرقة والقصائد. فالبلوي يتحدث عن اهتمام التونسيين به وبرحلته، وبما أتي به من الفوائد والقصائد من الأماكن التي زارها. يقول: «وأقبلوا يطالبونني بما أجلبت من الفوائد،

---

[1] - **مستفاد الرحلة والاغتراب**، القاسم بن يوسف التجيبي السبتي؛ ص260.

[2] - **الرحلة المغربية**، العبدري، ص120.

[3] - **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، ابن عماد الحنبلي، 200/6.

[4] - المصدر نفسه، ص331.

[5] - المصدر نفسه، ص345.

[6] - **رحلة ابن جبير**، ص 195-200.

[7] - **الرحلة**، ابن بطوطة، ص 156-168.

[8] - **ملء العيبة** لابن رشيد...

[9] - **الرحلة المغربية**، ص67.

ويقصدونني في إطلاق ما قيدت من القصائد، ولا أحصي كم أديبا كتب عني قصيدة صاحبنا جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن سليمان الدمشقي المعروف بالنابلسي»[1].

ولا يخفى ما كان للرحالة المغاربة من اهتمام بالغ وشغف كبير في الاتصال بالعلماء واللقاء بهم، لذلك خصصوا مساحة مهمة من رحلاتهم للحديث عن العلماء والمشايخ وأحوالهم.

3- الدافع السياسي

بالرغم من أن الرحلات الحجية في منطلقها وغايتها دينية، الغرض منها أداء مناسك الحج وزيارة الأماكن المقدسة، إلا أن الدوافع السياسية كانت حاضرة لدى عدد من الرحالة، سواء أولئك الذين كان سبب خروجهم سياسيا بالأساس؛ كابن العربي مثلا، أم أن الأوضاع السياسية في المغرب أو المشرق جعلتهم يهتمون بالشأن السياسي، أو أن المهمة السياسية كانت من بين مهام الرحالة المتوجه إلى الديار المقدسة، وخاصة السفارة. وقد حفظ التاريخ لنا أسماء عدد من السفراء، ولقد نشطت السفارة المغربية إلى المشرق في عهد الدولة المرينية؛ حيث كان ولاة الأمر يغتنمون الركب الحجي؛ فيبعثون في صحبته سفراء لإيصال الرسائل والهدايا والمصاحف إلى المساجد المشهورة في المشرق أو إلى الحرمين المكي والمدني. وأهم فترة ازدهرت فيها هذه السفارات هي الفترة التي حكم فيها أبو الحسن المريني[2].

وعلى الرغم من كثرة السفارات، إلا أننا لا نجد رحلة سفارية مدونة بشيء من التفصيل يمكننا من معرفة الأحوال السياسية والاجتماعية والثقافية وغيرها، إلا من بعض الإشارات التي تضمنتها كتب التاريخ والتراجم عن هذه السفارات. فرحلة ابن بطوطة إلى السودان كانت مهمة سفارية، لكنه تجنب التفصيل في شأن هذه السفارة وأسبابها والهدف منها[3].

4- الدافع التجاري

إن كثيرا ممن رحلوا في هذه الفترة جمعوا بين الحج والعلم والتجارة؛ إذ لا تعارض بين هذه المقاصد لقول الله عز وجل ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾[4]. وليس غريبا أن نجد من بين هؤلاء من كان إذا وصل إلى بلد، التف حوله الناس؛ منهم من يبتاع سلعا، ومنهم من يستفيد علما.

---

[1] - **تاج المفرق في تحلية علماء المشرق**، 39/1.

[2] - **ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين**، لمحمد المنوني، الرباط، 1399هـ/1979م، ص 137-179.

[3] - **الرحلة**، ابن بطوطة، ص: 665 -689.

3 - سورة الحج، الآية 37.

ومما شجع الرحالة على التجارة، في هذه الفترة، كثرة الأسواق المنتشرة والمفتوحة، سواء في الشرق الإسلامي أم غيره، لكن قلة المصادر أو ندرتها في هذا المجال جعلت الدوافع الأخرى الدينية والعلمية والسياسية أكثر ذكرا.

5- دافع السياحة والتجوال.

لقد أسهمت ظروف الأمن والاستقرار وحسن الاستقبال، في أغلب الأحيان، في جعل بعض الرحالة يتخذون السياحة والتجوال غرضا لرحلاتهم لأن ذلك لا يتنافى مع نية الحج كما ذكرنا آنفا. فهذا أبو حامد الغرناطي الأندلسي يقول، في كتابه «تحفة الألباب»: «منذ اغتربت عن المغرب الأقصى عام 557هـ/1162م، شاهدت من الأئمة الكرام ما لا يعد ولا يحصى، وأولاني الله عز وجل على أيديهم من أنواع النعم ما لا يقدر على إحصائها إنسان»[1].

أما ابن بطوطة، شيخ الرحالين المسلمين، فهو أفضل نموذج لهذا الصنف من الرحلات. فهو، كما الدكتور حسين مؤنس، قطع هذه المسافات الطويلة دون أن يشعر أنه خرج من بلده أو فارق أهله، فقد وجد في كل مكان من يستقبله ويؤويه ويقدم إليه الطعام، لا على سبيل الكرم والتفضل، بل لأنه كان هناك تنظيم محكم وضعته الأمة وقامت على رعايته وتنفيذه دون تدخل من الدولة؛ ذلك هو نظام المدارس والزوايا والرباطات، وهي دور ضيافة ينشئها بعض أهل الخير أو رجال الطرق الصوفية أو كبراء أهل الدولة من مالهم الخاص. وقد تنشئها الجماعة نفسها، وتتولى أمرها ورعاية النازلين بها من أموال تجمع لهذا الغرض[2].

وهنا لا بد من التنبيه على أن الدوافع الدينية والعلمية حاضرة بقوة حتى في رحلات السياحة والتجوال، حيث يبدو ذلك واضحا من خلال مدونات هؤلاء الرحالة من الاهتمام بذكر العلماء والمشايخ، والمساجد والزوايا والرباطات...

ثانيا: أنواع الرحلات الحجية

يمكننا أن نقسم الرحلات الحجية المغربية إلى أنواع متباينة، فباعتماد المعايير التالية يمكن تصنيفها من حيث التدوين والتسجيل، أو من حيث الدوافع والمقاصد، أو باعتبار طريق الرحلة، أو من حيث الركب، أي الرحلات الفردية، والرحلات الجماعية، أو من حيث مدة الرحلة، أو من حيث التموقع الزمني والحالة العامة للدولة....

[1] - **تحفة الألباب ونخبة الإعجاب**، أبو حامد الغرناطي، ص46.

[2] - ابن بطوطة ورحلاته، حسين مؤنس، ص20.

1- أنواع الرحلات من حيث التدوين

1.1- رحلات كتبت أثناء الرحلة: وقد تميزت بالدقة والتسلسل، ويمثل هذا الصنف العبدري، بدليل أنه لما التقى بابن دقيق العيد في القاهرة، وحصل منه على الإجازة، قال: «ووقف على ما تقيد من هذه الرحلة واستحسنه وأفادني فيها أشياء، وقيد منها وفاة الشقراطسي صاحب القصيدة المشهورة، حسبما تقيدت في موضعها مما تقدم.»[1]

1.2- رحلات كتبت من المذكرات: وهي تلك التي دونها أصحابها أثناء الرحلة، وهي عبارة عفي شكل رؤوس أقلام، وأهم ما واجهه الرحالة في طريقه. فالتجيبي، في «مستفاد الرحلة»، يشير إلى أحداث تتعلق بسنة 704هـ/1304م، مع أن الرحلة كانت سنة 696هـ/1297م.[2]

ومن هذا الصنف أيضا ابن رشيد الذي دون مذكرات ونصوصا وأشعارا، وبعد رجوعه من الرحلة نظم ما جمعه وأخرجه منسقا.

وقد استهوت هذه الطريقة العديد من الرحالة؛ لأن كثيرا منهم صاروا يفتتحون رحلاتهم بإسداء النصح والتوجيه إلى من يرغب في الحج وتأدية المناسك، وهذا يبرهن على أن الرحالة قد أنهى رحلته، ولكنه لم يلم شتات ما جمعه منها بعد، ولم ينسق ما رواه عن الأعلام[3].

1.3- رحلات كتبت من الذاكرة، إما بصفة كلية أو جزئية. فأصحابها إما أنهم لم يدونوا شيئا مما شاهدوه وعاينوه أثناء رحلتهم، وإما أنهم كتبوه وضاع منهم. وخير مثال عن هذا النوع؛ رحلة ابن بطوطة، ورحلة أبي يعقوب البادسي. وهذا الصنف طاله تحريف وتحويل على قدر قوة ذاكرة الرحالة وضعفها. ومن ذلك مثلا ما وقع لابن رشيد، حيث لم يتذكر بالضبط ما تحدث به الشاميان أمامه بمسجد النبي صلى الله عليه وسلم.[4]

1.4 رحلات كتبها غير أصحابها الذين قاموا بها؛ مثل رحلة ابن بطوطة التي كتبها ابن جزي من إملاء ابن بطوطة بأمر من أبي عنان، ورحلة ابن جبير الذي لم تكن رحلته مرتبة بالشكل المطلوب، فتصدى لها غيره ممن أعجب بمحتواها. ويوضح أبو الحسن الشاذلي هذا الأمر بقوله «إنها ليست

[1] - رحلة العبدري المسماة الرحلة المغربية، ص139-140.

[2] - مستفاد الرحلة والاغتراب، القاسم بن يوسف التجيبي السبتي؛ ص307.

[3] - أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني، الرباط، مطابع عكاظ، 1990، 35/1.

[4] - ملء العيبة، ابن رشيد، 65/5.

من تصانيفه، وإنما قيد معاني ما تضمنته فتولى ترتيبها وتنضيد معانيها بعض الآخذين عنه ما تلقاه والله أعلم»[1] .

2- أنواع الرحلات من حيث الدو افع والمقاصد

لعل الدافع الأساس الذي جعل المغاربة يتركون ديارهم وأهليهم، ويرحلون صوب المشرق الإسلامي، هو تلبية نداء الرحمن؛ أي أداء فريضة الحج وما يتصل بها من أعمال، حيث يمثل هذا النسك جوهر الأهداف الدينية التي دفعت القادرين من المغاربة والأندلسيين في هذا العصر وغيره إلى شد الرحال ومغادرة الأوطان في اتجاه الحجاز. غير أن هناك أهدافا دينية أخرى شجعتهم على الرحلة إلى الجزيرة العربية؛ كأداء مناسك العمرة، وزيارة المسجد النبوي والمشاعر المقدسة بمكة والمدينة. هذا وينضاف إلى ذلك دوافع أخرى استنهضت هممهم، وشحذت عزائمهم للقيام بهذه الرحلات التي مزجت، في غاياتها ومقاصدها، بين العبادة وطلب العلم وكذا طلب الرزق...

ومن الطبيعي أن تكون الرحلات والأسفار هي البوابة الأولى لطلب العلم خلال هذه الفترة؛ وذلك لندرة الكتب من جانب، وتعدد المراكز الثقافية في ديار الإسلام بالمشرق خاصة من جانب آخر[2]. ولعل رحلة ابن رشيد تأتي في المقام الأول باعتبار هذا التصنيف، إضافة إلى رحلات التجيبي والعبدري والبلوي والقلصادي والوادي آشي؛ حيث حرصوا جميعا على الاستزادة من العلم، ولقاء المشائخ، وطلب الإسناد العالي...

هذا بالإضافة إلى حب الاستطلاع والسير في الأرض، الذي يمثله ابن بطوطة بامتياز. أما يعقوب البادسي فقد حركه الشوق والحنين إلى زيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم، ولقاء الأولياء الصالحين، والتبرك بهم...

2.1- أنواع الرحلات من حيث الطريق والوسائل

يمكن تصنيف الرحلات الحجازية المغربية الأندلسية، باعتبار الطريق ووسيلة النقل من البلد الأصلي في المغرب إلى الحرمين الشريفين، سواء أكان ذلك برا أم بحرا، فإذا كانت رحلة العبدري برية خالصة، فإننا نجد الرحلات الأخرى قد جمعت بين الطريق البري والطريق البحري. أما وسائل النقل، فباستثناء المراكب والسفن في البحر، فإننا نجد ما كان يعتاد الناس ركوبه في ذلك الوقت، من خيول وجمال...

[1] - الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، مصر، 1358هـ/1939م، 118/3.

[2] - الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، زكي محمد حسن، دار الرائد العربي، بيروت، 1401هـ/1981م، ص6.

2.2- أنواع الرحلات من حيث العدد (الفردية والجماعية).

إن الرحلات التي بين أيدينا نسبت إلى أفراد بعينهم، وهذا يعني أنهم قد رحلوا منفردين، أو بالأصح في ركب صغير محدود الأفراد، يضمهم ومن يحتاجون إليه، سيما وأننا نجد بعضهم يمكث مدة غير يسيرة في تلمسان، أو تونس أو القاهرة أو الإسكندرية أوغيرها، من أجل طلب العلم ولقاء الشيوخ. إذا فهي رحلات غير منضبطة بضوابط ركب الحاج، وإن كان بعضهم قد أكمل طريقه ضمن الركب؛ كابن بطوطة عندما عين قاضي الركب بدءا من تونس.

2.3- أنواع الرحلات من حيث تموقعها الزمني

تمتد الرحلات التي نحن بصددها من أواخر القرن السابع إلى أواخر القرن التاسع، وهذا معيار آخر يمكن اعتماده للتصنيف، وهذا تصنيف يعطينا صورا متعددة ومختلفة للمجتمع الإسلامي آنذاك؛ لأن الأحوال العامة قد تغيرت نوعا ما بين القرنين السابع والتاسع، فالظروف التي كانت سائدة عندما رحل ابن رشيد ليست هي نفسها عندما رحل القلصادي... وهذا أمر مهم، حيث يمكننا من خلال قراءة الرحلات خلال هذه الفترة أي حوالي ثلاثة قرون، أن نتبين التطور الذي عرفته المجتمعات على مستويات عدة، سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وتربويا وعلميا وثقافيا...

2.4- أنواع الرحلات من حيث مدتها الزمنية

أما من حيث المدة الزمنية التي استغرقتها كل رحلة، فإن رحلة ابن بطوطة هي أطول رحلة على الإطلاق، وإن كانت المدة التي قضاها لم تكن قاصرة على أرض الحجاز فقط، لكنه حج سبع مرات؛ مما يجعله يأتي في أوائل الرحالين من حيث مدة رحلته وبقائه بجوار البيت العتيق ...